

لعبة التوازنات وزواج المصلحة

إنه صيف ١٩٥٧ ... إذ سنحت لروبرت (بوب) دريهر ٨٢ الفرصة للعودة إلى ميونيخ ... "دريهر" المتهم بقلب الأوضاع في أمكوليب رأسا على عقب بغية إعادة تنظيمها، والمتهم أيضا بالاستخدام المسيء للاجئين، وبخاصة "المسلمون".

لقد كان "دريهر" تواقا إلى فرصة تمكنه من تنفيذ سياسة "الهجوم الاستباقي"، والفوز في بعض معارك دعائية ضد السوفييت. إلا أنه كان مدفوعا بمحركات أخرى أيضا. فخلف رجل "وكالة الاستخبارات المركزية" المثابر الجاد - يقبع ذلك الصارم غير القابل للتدجين ... ذلك الكاره لأمريكا "خمسنيات القرن العشرين". أجل ... إن ضرب الشيوعيين لأمر مرض، بيد أن "دريهر" قد رأى في أوروبا مكانا لإشباع رغبات آخر.

أما طريق عودته إلى ميونيخ، فقد عكس المحركات التي كانت تدفعه. فعوضا عن الذهاب من الولايات المتحدة الأمريكية إلى ميونيخ مباشرة، هبط "دريهر" في العاصمة الفرنسية باريس ليركب قطارا ثم قاريا إلى ile du Levant أو "جزيرة المشرق" - وهو شاطئ عراة في الريفيرا الفرنسية. وهناك ... التقى "دريهر" أصدقاء قدامى، وتعرف إلى آخرين جدد. أما واسطة العقد، فكانت "تلك الصور

التي قمت بالتقاطها بواسطة كاميرتي (الكوداك) ... تلك الصور التي ضمت بعضها من صيد ثمين" ... على حد ما كتبه في خطاب بتاريخ السادس من آب/ أغسطس ١٩٥٧ أرسله إلى أخته "هيلين"، وزوجها "تشارلز أوركفيتس".

كان "دريهر" ينتمى إلى ذلك النمط من الرجال الجاذب للنساء، إذ كانت له الملامح التقليدية لوسامة نجوم هوليوود "الخمسينيات" ... فقامته السامقة (١٨٨ سم)، وجسده الرشيق (٨٢ كيلو غرام)، فضلا عن شعره الأسود المنسدل، ووجه الأملس الوسيم، وتمتعه بروح الدعابة ... جعله هذا كله أقرب شبها بأولئك "النجوم". أما ابتسامته الساحرة التي لم تفارقه قط في أية صورة التقطت له، وأسنانه البيضاء المنتظمة ... فكانت تمنحه بعض الشبه من الممثل "كارى غرانت".

"إن امرأة واحدة لا تكفيني" ... قالها "دريهر" ضاحكا، وكأنما يحذر بها "كارين"

وست - تلك اللاجئة البلطيقية التي كانت تعمل بمستجمع أفكار خاص بأمكومليب في الاتحاد السوفييتي. بيد أن "كارين" لم يكن ليقلقها تعدد علاقات "دريهر" النسائية ... فهي صديقة "أفلاطونية" انتمنها "دريهر" على أسرارها ... امرأة تظاهرت بكونها زوجته ليتمكن الثنائي من المرور إلى داخل شواطئ العراة الألمانية، تلك التي تستقى "قلسفتها العارية" من حركة ألمانية تعرف بـ "ثقافة الجسد الحر" ... تلك الثقافة التي تعتمد نهجا "طبيعيا" فيما يخص الرياضة والحياة المجتمعية، ثقافة تؤمن بما يتيحها "التجربة الطبيعية" من متعة ومرح، وكذا ما يتيحها "التعري" من نتائج مماثلة ... ذلك التعري الذي لا يرتبط - في جوهره - بإيحاءات جنسية بعينها. هذا، ولم تكن "شواطئ العراة" تلك لتشبع رغبات "دريهر" أو من على شاكلته من عزاب ذوى علاقات نسائية عابرة ... إذ كان على مرتاديه أن يكونوا أزواجا جادين، وألا يكونوا سكارى. أما "دريهر"، فلم يكن ذلك "السياق الروحاني" المستمد من حركة "العودة إلى الطبيعة" ليعنيه من قريب أو بعيد.

وبين الحين والآخر، كان نمط حياة "دريهر" يمزقه كل ممزق. ففي خطابهات المرسله إلى وطنه "الأمريكي"، كان "دريهر" يبهج أفراد أسرته - هناك - بروايات حيكته بدقة وعناية عن جميع "الجماليات" اللواتى صادفهن ... فكانت النبرة نبرة "دريهر"، وهو مقيم في أوروبا ... ذلك الأعزب السرمدى الغارق فى ملذاته. إلا أنه - فى مناسبة بعينها - يصحو من غفلته ليعض بنان الندم مخبرا أخته وزوجها، فى خطاب أرسله إليهما فى التاسع عشر من أيار/ مايو ١٩٥٣، بأنه "فى أعماق نفسى، أدرك أننى أفتقر بشدة إلى التناغم والتوافق والاتساق ... إننى عازم على العودة إلى ديارى حيث أرض الرب عسانى أجد مخرجاً".

أما خلال فترة إقامته الثانية فى أوروبا، فكان "دريهر" - وفقاً لذكريات مستخدميه وزملائه - يتجاذبه تياران ... تيار يدفعه نحو استئناف مسيرة شاقة لم

يؤمن إلا القليل بأنها ذات جدوى، وتيار يجذبه ليكون أسير عذابات نمط حياته البوهيمي ... لقد بدت "مشكلته" الرئيسية وكأنما قد انحصرت في اقتناء سيارة "مكشوفة" مناسبة (فالمرسيدس باهظة الثمن، فيما الفولكس فاجن بسيطة للغاية)، أو في اقتناء مُشغّل للموسيقى (فالأجهزة الألمانية تبدو جيدة، بيد أن كفاءتها منخفضة) ... أما النساء، فكل ما يبغين هو أن يتزوجن.

إن كثرة من العاملين بأمكومليب قد أضحوا خبراء فيما يخص ثقافات اللاجئين ولغاتهم، وهو ما أكسب أولئك العاملين تقديراً وإجلالاً ... إلا "دريهر" - حين سئل - عند قيامه بملء استمارة وكالة الاستخبارات المركزية - ليكتب عن هواياته وفق تسلسلها ... كتب "دريهر" أنه يجيد الرقص، والتشخيص الدرامي، وتنس الطاولة (البينغ بونغ)، وأنه لذو مستوى متوسط فيما يخص كرة المضرب (التنس)، والإبحار بالمراكب، والفوتوغرافيا ... أما القراءة، فيكاد لا يلقي لها بالا. كذا، فقد كانت "اللغات" ضمن نقاط ضعفه، إذ كان يعرف بعض الروسية والألمانية - كتابة ... إلا أنه كان يتحدث ألمانية ركيكة رغما عن مضي سنوات عاشها في ألمانيا. أما معينه الثرى الذي لا ينضب، وكنزه الثمين الذي لا يفنى ... فالصور التي التقطتها عدسة كاميرته "الكوداك" - تلك الصور التي كان يحب أن يريها نفرا من اللاجئين المفتونين ... ويتذكر البعض إصابتهم بالنفور من تلك الصور. أما "دريهر"، فلم يلق باللائمة لتلك الصور ... إذ ظل بعضها مزدانا بإطارات حوته أعلى مكتب "بوب دريهر". ويا لها من مفارقة ... فذلك الرجل الذي كان تجسيدا لمبدأ اللذة والمتعة - وهو المبدأ الذي نشأ في خمسينيات القرن العشرين - هو من أخذ القرار بإعادة هيكله "الأمكومليب" وتنظيمه. أما نهجه، فكان الشراكة مع سعيد رمضان وجماعة "الإخوان المسلمين".

خلال الولاية الثانية من حكم الرئيس "أيزنهاور"، قررت الإدارة الأمريكية أن

تكون أكثر جدية في تناولها لقضية "الإسلام" ... إذ تم الإعلان عن "مبدأ أيزنهاور" ٨٤ عام ١٩٥٧، والذي تعهدت الولايات المتحدة الأمريكية بمقتضاه بالتدخل العسكري لصد العدوان - الفعلي والملوح به - في ردة فعل لما ارتآه صانعو السياسة الأمريكية من نفوذ سوفياتي متنام في إقليم الشرق الأوسط، وبخاصة في مصر. أما الرئيس "أيزنهاور"، فقد بدا - شخصياً - مهموماً بكيفية مخاطبة العالم الإسلامي. لذا، فقد عمد إلى كتابة خطاب في الحادي والثلاثين من تموز/ يوليو ١٩٥٨ وجهه إلى المؤمن على أسراره - القس البروتستانتي "إيوارد إلسون" قائلاً إن الإسلام وإقليم الشرق الأوسط كان كلاهما يشغلان ذهنه ويدوران بخله على الدوام. واستطرد "أيزنهاور"، في خطابه، ليخبر "إلسون" ويؤكد له: "إنني لا أتوانى ألبتة في أى اتصال أجريه مع هذا القائد العربي أو ذاك - شفاهة أو كتابة - في التشديد على أهمية العامل الروحاني في علاقاتنا. إنني لأذهب دائماً إلى ضرورة أن يخلق إيماننا المشترك بالله هدفاً يجمعنا - ألا وهو دحر الشيوعية الملحدة".

أما في اجتماعات البيت الأبيض، فكان "أيزنهاور" أكثر جرأة. ففي حديثه إلى مهندس العمليات السرية لوكالة الاستخبارات المركزية - "فرائك غاردنر ويزنر" ٨٥، وكذا إلى هيئة الأركان المشتركة، ذهب "أيزنهاور" إلى ضرورة أن يسير "العرب" أغوار دينهم وأعماق عقيدتهم بحثاً عن إلهام يجعلهم يحاربون تلك الشيوعية البغيضة.

ووفقاً لمذكرة توضيحية أعدها العميد/ أندرو غودباستر، سكرتير "أيزنهاور" للأركان، بتاريخ السابع من أيلول/ سبتمبر ١٩٥٧ اشتملت على حديث "أيزنهاور" إلى "يزنر" ... "فإن أيزنهاور قال إنه يجب علينا القيام بكل ما في وسعنا للتشديد على مفهوم الحرب المقدسة". أما "جون فوستر دالاس" - وزير الخارجية الأمريكي آنذاك - فقد عقب بأنه "إذا كان للعرب أن يخوضوا حرباً مقدسة، فسيريدها

حرباً ضد إسرائيل. إلا أن "أيزنهاور" قد ذكر أن العاهل السعودي، آنذاك، الملك سعود بن عبد العزيز قد دعا العرب كافة، بعد زيارة له إلى الولايات المتحدة، إلى مناهضة المد الشيوعي.

هذا، وقد عمل "مجلس تنسيق العمليات" - وهو الكيان القائم على تنفيذ العمليات المغطاة لووكالة الاستخبارات المركزية وغيرها من الوكالات - إلى تبني "الإسلام" سلاحاً. وكان "المجلس" قد فرغ، بالفعل، من إعداد دراسة مفصلة عن "البوذية"، وكيف أنه يمكن استخدام تلك العقيدة في المضي بالمصالح الأمريكية قدماً. وفي عام ١٩٥٧، أنشأ "المجلس" فريق عمل أرسى خصيصاً للتباحث حول "الإسلام" ... فريق ضم مسئولين من الوكالة الأمريكية للمعلومات، ووزارة الخارجية الأمريكية، ووكالة الاستخبارات المركزية. ووفقاً لمذكرة تناولت الاجتماع الأول لفريق العمل، كان الهدف تقييم أداء المنظمات الأمريكية - الخاصة والعامّة - بشأن قضية "الإسلام" وتوظيفه، والوصول إلى "خطة تنفيذية مبدئية" ذات مكونين رئيسيين، كانت لهما أصداء في عمليات وكالة الاستخبارات المركزية في ميونيخ. أما المكون الأول ... فذهب إلى ضرورة تجنب الولايات المتحدة للمسلمين التقليديين، والتعامل - كبدل عن ذلك - مع "جماعات الإصلاح"، من أمثال جماعة "الإخوان المسلمين".

وأما المكون الثاني ... فقد تناهت الأجندة السياسية الراديكالية لجماعة "الإخوان المسلمين" الزاهية إلى العودة إلى الإسلام النقي وفق منابه الأصيل - آنذاك، كما تناهت - مع استخدام أعضائها لرموز حداثة عصرية كاللباس الغربي والرطانة الأجنبية. لذا، فإن رئيس فريق العمل وعضو وكالة الاستخبارات المركزية بالفريق قد استشعرا أنه نظراً لانقسام العالم الإسلامي ما بين جماعات رجعية وأخرى تقدمية إصلاحية ... فقد يكون الأجدى هو التشديد على برامج تعمل على تقوية شوكة تلك الجماعات التقدمية.

وفى الثالث من أيار/ مايو ١٩٥٧، وافق "مجلس تنسيق العمليات" على البيان التفصيلي وخطة العمل ... حيث كانت العبارات بسيطة جلية: الإسلام حليف فى معركتنا ضد الشيوعية، أما الشيوعيون فيستغلون الإسلام بتوظيفه ... إلا أن الإسلام لذو تأثير فى موازين القوى. هذا، وقد اشتمل البيان على العديد من التوصيات بشأن تمكين الأواصر مع المنظمات الإسلامية، وبخاصة تلك المتسمة بمنحى واضح تجاه مناهضة الشيوعية. وكما هى الحال دائماً، توجب أن تكون العمليات مغطاة ... إذ خلص البيان إلى أن "البرامج المغطاة، والتي يصعب عزوها إلى جهة بعينها، تكون فاعليتها أكثر رجحانا بما يحول دون اتهامنا بتوظيف الدين لتحقيق مآرب سياسية". كذا، فقد ذهب البيان إلى "ضرورة الابتعاد عن التوظيف العلنى للمنظمات الإسلامية لترسيخ الدعايات المتشددة فى الأذهان".

تلك كانت الاستراتيجية التى انتهجها كل من "دريهر" والأمكومليب ... بحذافيرها، ونظرا إلى كون بعض ملفات "وكالة الاستخبارات المركزية" لم يفرج عنها بعد، فيضعب القول - إذأ - وعلى وجه التحديد، أن أمكومليب كانت تمول "سعيد رمضان" وجماعة "الإخوان المسلمين" تمويلا مباشرا. بيد أنه، وفى ظل غياب قائمة بمدفوعات "وكالة الاستخبارات المركزية"، فإن أية دلالة هنا أو أخرى هناك لتشير إلى حقيقة قيام "دريهر" والأمكومليب باستخدام رافعة مالية ودفعة سياسية للدفع برجل "الإخوان المسلمين" - سعيد رمضان - إلى الأمام.

كان "بوب دريهر" - قبل مغادرته الولايات المتحدة الأمريكية قاصدا ميونيخ - يعمل مساعداً خاصاً لهولاند هيل سارغنت، رئيس أمكومليب^{٨٦}. ... حيث كانت مهمته تنظيم الدعايات المستترة لإقناع الأمريكيين بوجود تنظيم قوى مستقل للاجئين السوفييت، وهو الأمر المنافى للحقيقة إذ لم يكن لتنظيم كهذا أى وجود ألبتة. كذا، فقد كان "دريهر" يحضر اجتماعات مجلس إدارة أمكومليب.

هذا، وقد أهله وضع كهذا تمام التأهيل لمنصبه الجديد كمنسق شئون اللاجئين براديو الحرية ... حيث أعفى "إسحاق باتش" من منصبه ... "باتش" الذى كان قد أرسل قبل سنوات قلائل مضت لتوحيد الجماعات الإثنية السوفييتية المتصارعة، وبناء جبهة ذات مصداقية لإخفاء تمويل وكالة الاستخبارات الأمريكية لتلك العملية وإدارتها لها. ولقد كان ينظر إلى "باتش" - ذلك الدبلوماسى - كرجل دمى حلو المعشر حريص على الوصول إلى إجماع الآراء بشأن القضايا المختلفة ... رجل أقرب ما يكون إلى رب أسرة محبوب، إلا أنه يفتقر إلى أفكار "دريهر" الجريئة ... "دريهر" - الذى كان تواقا لإنعاش شئون اللاجئين بإعادة إحيائها، فعوضا عن استخدام اللاجئين كمواهب إذاعية على أثير راديو الحرية فحسب، أراد "دريهر" أن يدفع بالمعايير الدعائية إلى الأمام كما حدث بالفعل فى كل من "مكة"، و"باندونغ".

أما زملاء "دريهر" الجدد، فلم يكن ذلك المنحى ليروق لهم ... إذ كان مقر الأمكوليب بنيويورك غاصا بتك العقليات الاستخباراتية ... تلك التى على شاكلة "دريهر"، إلا أن الأمر فى ميونيخ كان جد مغاير. فالعاملون هناك كانوا حريصين تماما على إدارة محطة إذاعية وتشغيلها ... لذا، فقد كانوا يعتبرون أنفسهم صحافيين قبض لمنظمتهم أن تحظى بمالك غير اعتيادى. أما "دريهر" فكان أشبه بما يذكرهم بكونهم ضالعين فى إحدى الجبهات الأمامية لوكالة الاستخبارات المركزية. كذا، فقد خامرتهم شكوك فى كون دوره متمثلا فى الحرص على الإبقاء على اليد الطولى للأيديولوجية بالأ تترجع وتفصح مجال الصدارة أمام حرفة الصحافة هناك، وذلك فضلا عن تشككهم بشأن تكتيكات "دريهر" المتبعة. فخلال انتفاضة هنغاريا (١٩٥٦/٨٧)، عمد راديو أوروبا الحرة، المحطة الشقيقة لراديو الحرية، إلى تشجيع الثوار إلى أن قام السوفييت بسحق الانتفاضة. إن فشلا كهذا من وجهة نظر الكثيرين فى مكتب أمكوليب بميونيخ قد أدى إلى تعرية مفهومي

"التحرر"، و"الهجوم الاستباقي" وفضحهما كرطانة خطابية جوفاء. على أن "دريهر" لم يكن ليستوعب الدرس. فوفقاً لويليام كلمب، أحد نواب "دريهر"، "فإننا جميعاً قد خلنا أن الاتحاد السوفييتي قد كان يحمل بين طياته عوامل فئانه ... بيد أنني لم أكن واثقاً في أن تريهر قد كان يدرك أمراً كهذا". جاء ذلك على لسان "كلمب" في لقاء جمعني به في السابع عشر من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦ بنيويورك سيتي.

هذا، وقد شرع "دريهر" في التحمس للمزيد من الاستخدام المكثف الفاعل للاجئين ... حيث انقسمت تكتيكاته إلى تكتيكات "هجومية"، وأخرى "دفاعية" ... وهو ما ورد في خطاب له في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦١ إلى "هولاند سارغنت" - رئيس الأمكوليب - استعرض "دريهر" خلاله التكتيكات المتبناة في العمل بميونخ. أما التكتيكات الدفاعية، فقد كانت تعنى الوقاية ضد الجهود السوفييتية الساعية إلى إعادة المواطنين السوفييت إلى أراضيهم - إذ كان الاتحاد السوفييتي قد دشّن حملة دعائية شرسة لاستعادة اللاجئين واعداً إيهم بعفو عام ووظائف مناسبة. وكان كثيرون من أولئك اللاجئين يغمرهم الحنين توقفاً إلى أوطانهم، حيث ارتحل البعض بالفعل إلى أرض الوطن ... لتعلن موسكو أن عودتهم دليل على كون ما يقال بشأن جاذبية الغرب وسحره ما هو إلا ادعاء أجوف.

أما اهتمام "دريهر" الحقيقي، فكان بالتكتيكات الهجومية. فالمحاولات الباكرة في هذا المجال، كاستزراع اللاجئين السوفييت في الاتحاد السوفييتي على سبيل المثال، قد أسفرت عن عواقب كارثية وخيمة، بيد أن الضجر من وتيرة الحرب الباردة الرتيبة قد أفضى إلى التشديد على ضرورة القيام بعمليات جريئة جسور. وفي هذا السياق، أيد "ولبول ديفيس"، مدير "بوب تريهر" وعضو مكتب تنسيق السياسات بوكالة الاستخبارات المركزية تلك التدابير بشدة. هذا، وقد كان معظم اللاجئين تواقين للتعاون في هذا الإطار، ولم تكن الموارد تنقص "دريهر" على

الإطلاق ... لذا، فقد عمد إلى ضمان انسياب المدفوعات إلى جماعات اللاجئين على نحو منظم. ولربما كان متلقو تلك المدفوعات أناسا كريهين مبغوضين، فيما كان البعض من القتلة، على الأرجح ... إلا أن المدفوعات كانت تجرى في مواعيدها. هذا، وكان الجميع يعلمون أن الممول هو "وكالة الاستخبارات المركزية"، وأن "روبرت دريهر" هو رجل "الوكالة" في ميونيخ.

لقد أمضى الدبلوماسيون الأمريكيون عام ١٩٥٨ في تقييم الدوافع وراء أداء بلادهم الباهت، بل والمعيب ... وخلصوا إلى أن إحدى المحاسن التي عوضت ذلك الأداء تمثلت في وجود قدامى من وثقت فيهم الولايات المتحدة من أمثال "سعيد شامل"، و"روسي نصار" ... إلا أن الأمريكيين كانوا بحاجة إلى ممثلين أكثر صدقية.

وهنا يأتي "دريهر" ليملاً فراغا كهذا ... وذلك وفقا لمساعدته، آنذاك، - إدوارد أوولورث"، أستاذ كرسى الدراسات التركية/ السوفييتية بجامعة كولومبيا بنيويورك، والذي كان - حينها - باحثاً ناشئاً في تاريخ آسيا الوسطى ... حيث قام بإجازة مدتها عام واحد ليصقل مهاراته اللغوية في ميونيخ لحساب "أمكوليب". هذا، وقد أكد لي "أوولورث" في لقاء أجرته معه في السابع من كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٦ بنيويورك سيتي، أن "دريهر كان يسعى للإفادة من سعيد رمضان، حيث عمل روسي نصار كهمزة وصل بين الاثنين". (إلا أن "نصار" قد رفض التعقيب على ذلك الأمر حين أخبرته به في لقائي به في العاشر من أيار/ مايو ٢٠٠٦ بفرجينيا). واستطرد "أوولورث" ليخبرني بأن "نصار قد سعى إلى أن يربط بين مؤتمر العالم الإسلامي وبين ميونيخ وأحداث جنوب شرقى آسيا".

إنه ليس واضحا ما إذا كان هذا التحالف قد ظل قائما حين دعا "سعيد

رمضان" إلى بناء مسجد لمسلمي ألمانيا خلال الجمع المنعقد بكنيسة القديس بولس عام ١٩٥٨، على ما أسلفنا. ففي تلك الآونة، ذكرت استخبارات ألمانيا الغربية، على نحو صريح وفي أكثر من تقرير، أن الولايات المتحدة الأمريكية قد وفرت جواز سفر أردنيا لسعيد رمضان لتتيح له الارتحال إلى أوروبا، فيما زعمت الاستخبارات السويسرية أنه كان جاسوسا أمريكيا. أما عائلة "رمضان"، فلم تعقب على الأمر، وأما وكالة الاستخبارات المركزية فلم تفرج بعد عن ملف "سعيد رمضان" لديها. إلا أن المؤكد هو أنه ما أن استقر "رمضان"، حتى شرع هو وروبرت دريهر في العمل معا.

إن الدليل الواضح على ذلك التعاون قد أسفر عن وجهه في شباط/فبراير ١٩٥٩، حين قام اثنان تربطهما علاقة وثيقة بأمكومليب بزيارة "فون منده". وكان أحدهما "أحمد نبي ماغوما" - الناشط السياسي العتيد والموظف السابق بالأوستمنستريوم، والذي سلفت الإشارة إليه. وقد التمس "ماغوما" - قبلها بسنوات قلائل - من "إيريك كوني هولم" بأمكومليب وظيفة له ... وذلك حين قام "كونيهولم" بجولة شملت كلا من ألمانيا وتركيا. أما الزائر الآخر، فكان "سعيد شامل"، الزعيم الداغستاني المبجل ذا العلاقات الوطيدة بأمكومليب. هذا، وقد قدم "ماغوما"، و"شامل" خطابا إلى "فون منده" اشتمل على طلب بتمديد نطاق "الإدارة الدينية للاجئين المسلمين في ألمانيا الاتحادية" - التي أنشأها "نور الدين نمقاني" من قبل، بالأ تقتصر على الجنود القدامى، بل لتشمل المسلمين كافة، وبخاصة طلبة "سعيد رمضان". كذا، فقد طالب الاثنان بعقد مؤتمر أوروبي حول الإسلام يتراسه "رمضان"، حيث ذكرا أن "نمقاني" ليس أهلا لمهمة كذلك ... إذ تبدى للطلبة الذين قاموا باستشارته في أمور دينية أنهم يعرفون عن "الإسلام" أكثر مما يعرف إمام "أسراب الدفاع" السابق. كذا، فقد أوردنا أن "سعيد رمضان" كان لديه الانطباع

ذاته عن "نور الدين نمقاني".

أما "فون منده"، فقد ثارت ثائرتة بشأن الخطة الأمريكية لدعم "سعيد رمضان" على حساب "نور الدين نمقاني"، حيث قال: "لدى انطباع بأن تلك الانتقادات قد أثرت عن عمد ضاربة عرض الحائط بالحقيقة الساطعة بغية تحجيم مسؤوليات "نمقاني"، والحد من تأثيره الفاعل". كما عمد "فون منده" إلى الحط من قدر رمضان قائلاً "إن رمضان لا يملك أدنى تأثير في العالم الإسلامي" ... وهو أمر مناف تماما لواقع الحال، ومقولة غمط فيها "فون منده" حق الرجل.

إلا أن "سعيد شامل" قد أخبر "فون منده" أن هواجسه وهمومه في غير محلها، إذ ليس لها أساس من صحة، وأن الخطة لتجرى - بالفعل - وفق المسار المرسوم لها، مضيفاً أن "دريهر" لراغب في تمويل المؤتمر المنشود، وأن قصارى ما يبغون من "فون منده" هو جهوده لإقناع وزارة خارجية ألمانيا الغربية باستخراج "تأشيرات" للمسلمين القادمين إلى ميونيخ لحضور المؤتمر. هذا، وقد أرسل "فون منده" تعقيباته على زيارة "ماغوما"، و"شامل" له، وذلك إلى وزارة الخارجية الألمانية، حيث كتب أن "سعيد شامل" كان يُعرف - على امتداد إقليم الشرق الأوسط - بأنه جاسوس أمريكي، وأنه لزام على ألمانيا الغربية أن تتشكك في مؤتمر يكون رئيسه "سعيد رمضان"، ... "ذلك أنه من الجلى أن الهدف من وراء جهود سعيد شامل هو إرساء منبر جديد يتمكن رمضان من خلاله - ونيابة عن الأمريكيين - من أن ينشط في الشرقيين الأدنى والأوسط". وبالطبع، لم تحفل الخارجية الألمانية بمخاوف "فون منده" وهواجسه ... إذ كان لأمكومليب نفوذ طاغ في ألمانيا الغربية التي عمدت خارجيتها إلى استخراج التأشيرات المطلوبة.

هذا، وكان الألمان الغربيون قد أقلت منهم زمام الأمور. إذ ورد إلى "فون منده"

تقرير من جهة ما فحواه قيام السفارة الروسية بتجنيد الطلبة العرب، والإعداد لإقامة حفل للطلبة المسلمين بكونيا في حانة "الفرنسيسكان" في فرايبورغ. أما ألمانيا الشرقية، فكانت تمنح الطلبة المصريين منحا وبعثات دراسية، فضلا عن عرب آخرين. إذا، ما لم يعمد "فون منده" إلى القيام بفعل ما، فسيتمكن، حينها، السوفييت من الإبحار بحرية في هذا البحر الخضم من "المجندين" المحتملين.

وفي تلك الأثناء، طرق السوفييت أبواب رجل من خاصة رجال "فون منده" البارزين ... وهو أستاذ جامعي يدعى "عبد الله" وفد إلى "هامبورغ" قادما من سوريا، حيث هاتف "نمنقاني" سائلا إياه ما إذا كان راغبا في تمويل المسجد المزمع إنشاؤه في ميونيخ ... إن جماع ما سيتطلبه الأمر هو زيارة إلى القاهرة. وهنا لجأ "نمنقاني" إلى "ولى قيوم خان" ملتصبا المعونة، وقام بنقل الرسالة إلى "فون منده" الذي استدعى "نمنقاني" من ميونيخ، ليحضر هو و"ولى قيوم" إلى "نوسلدورف" للتشاور في الأمر. هذا، وقد فهم "فون منده" أن العرض المقدم قد مثل ردة فعل موسكو إزاء طلب الأمريكيين تنظيم المؤتمر. فالسوفييت أرادوا استبعاد الأمريكيين عن طريق قيامهم بتمويل المسجد بأنفسهم. وهنا تم إبلاغ "نمنقاني" بالأى يذهب إلى القاهرة.

ورغبة منه في معادلة القوتين الأعظم ... الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي ... دشّن "فون منده" عملياته المستترة في إقليم الشرق الأوسط. فخلال موسم الحج لعام ١٣٧٨ هجرية (١٩٥٩ ميلادية) - قام "فون منده" بإرسال "نور الدين نمنقاني"، و"باي ميرزا هاييت" في رحلة إلى الشرق الأوسط لتوزيع بعض الدعايات المناهضة للشيوعية وأخرى مناصرة لألمانيا الغربية. إلا أن ما أُبلِغ به قد بات يقلقه، فبفضل تدخل "سعيد رمضان"، شرع العالم الإسلامي يدرك أن "مسجد ميونيخ" هو مشروع أمريكي، لا ألماني ... في إشارة أخرى إلى اضطلاع "رمضان"

بمهام كبيرة نيابة عن أمكوليب. أما "تمنقاني"، فقد أرسل تقريراً إلى "فون منده" مخبراً إياه بمواجهة مصاعب جسام مع اللجنة الأمريكية للتحرر من البلشفية. وفي لعبة كتلك الدائرة، كانت ألمانيا الغربية خارج إطار رابطة القوى العظمى. ففي أعماق طواياهم، أراد الألمان أن يضطلع المسلمون بدور ما بشأن مطلب ضبابي "دون كيخوتي" ... ألا وهو مساعدة ألمانيا في استعادة أراضيها المستولى عليها، وذلك ذات يوم في قابل الزمان. أما القوتان العظميان، فكان لديهما - بالمقابل - أهداف استراتيجية آنية عراض فيما يخص "الإسلام" ... حيث كانت ألمانيا الغربية ساحة للقتال فيما بينهما.

وخلال تلك الأثناء، كان "سعيد رمضان" في أوج تأثيره. ففيما كان يكتسب تحالفات قوية في أوروبا، فقد ظل يمثل قوة ضاربة في العالم الإسلامي أيضاً. فعلى سبيل المثال، قام رمضان بإعادة الروح إلى "منظمة المؤتمر الإسلامي" التي عمد إلى إحيائها. لقد تشكلت تلك المنظمة بغية توحيد المسلمين على امتداد أنحاء العمورة، إلا أنه - وبحلول خمسينيات القرن العشرين - تضاعف الكيان ليضحي مجرد منتدى يسيطر عليه أمين الحسيني، وجماعة "الإخوان المسلمين". إلا أن "سعيد رمضان" قد قام بالدعوة إلى "الاجتماع العام" الثالث للمنظمة في كانون الثاني/يناير ١٩٦٠، حيث أحرز نجاحاً مدوياً. وكان من بين حضور الاجتماع، فضلاً عن أعضاء جماعة "الإخوان المسلمين" بالمنفى، رئيس الوزراء الإندونيسي الدكتور محمد بن ناصر بن إدريس داتوسيتاريو - إلى جانب ممثلين عن اثنتي عشرة دولة إسلامية. هذا، وقد حظى الاجتماع بدعم مجموعة من رموز الثقافة البارزين من أمثال "سعيد شامل" الداغستاني، حيث تناول عدداً من المواضيع والقضايا، كان أبرزها الشيوعية وقضية فلسطين. أما تعاطف "سعيد رمضان" الأيديولوجي مع الموقف الأمريكي، فيمكن أيضاً ملاحظته من خطاب كتبه إلى

واحدة من جبهات وكالة الاستخبارات المركزية بميونخ ... تحديداً، معهد دراسات الاتحاد السوفييتي، وذلك في السادس عشر من آذار/ مارس ١٩٦٠، حيث خاطب "على قنطمير"، بالنسخة العربية من مجلة "المعهد" معرباً عن مدى استمئاعه بها، ومبدياً استعداده لتوزيعها في الأقطار الناطقة بالعربية.

إلا أن قاعدة "رمضان"، ومركز ثقله - كما بدا جلياً - قد أخذ ينتقل صوب القارة الأوروبية. فرغما عن كونه رمزاً له اعتباره ضمن جموع المسلمين بالشرق الأوسط، إلا أنه كان مفتقراً إلى الأمان. وفي أثناء إقامته بالسودان خلال عام ١٩٥٩، قرر "رمضان" الانتقال هو وأسرته للعيش نهائياً في جنيف بسويسرا. ففي خطاب أرسله إلى "قون منده" في العاشر من نيسان/ أبريل ١٩٥٩، أخبره "رمضان" بأنه قد تجرع كأس الانقلابات والديكتاتوريات كاملة ... ومن ثم، فقد سئم وضاق ذرعاً فاعتزم الرحيل.

هذا، وقد أضحت زيارات "رمضان" إلى ألمانيا تترى. فبعد شهر من وصول أسرته إلى جنيف ... شارك الرجل في "المؤتمر الأوروبي" الذي موله "روبرت دريهر" ... ذلك المؤتمر الذي استهدف تمثيل جميع المسلمين في ألمانيا وأوروبا. ويخصوص هذا المؤتمر، كتب إبراهيم كوجا أوغلو خطاباً بتاريخ السابع والعشرين من نيسان/ أبريل ١٩٥٩ إلى "فالتر شتاين" - وزير العمل البافاري، آنذاك ... نظراً لما يربطه من علاقات وثيقة بأمكومليب. إذا، فلا عجب أن تكون فحوى الخطاب عاكسة لفكر أمكومليب. هذا، وقد ذهب كوجا أوغلو إلى وصف "ميونخ المستقبل" بأنها مركز الإسلام في العالم أجمع، إذ يجب أن يكون مسجدها مسجداً للمسلمين كافة. فوفقاً له، "يجب ألا يستهدف المسجد المزمع بناؤه جماعة بعينها، أو فصيلاً دون آخر ... بل يجب أن يكون المسجد نقطة انطلاق لمسلمي العالم بأسره، ومركزاً للفكر الإسلامي ... فضلاً عن ضرورة أن

يكون بؤرة لالتقاء الفن الإسلامي والفن الألماني وتمازجهما معاً.

وقد كان لهذه الأهداف أصداء في الهيكل الجديد الذي أرساه "سعيد رمضان". فحين اجتمع الطلبة والجنود القدامى بكنيسة القديس بولس بميونخ في عام ١٩٥٨، قرر الحضور تشكيل لجنة بناء مسجد ميونخ، على أن يترأسها "نور الدين نمقاني"، ويكون "رمضان" رئيساً شرفياً لها. هذا، وقد ظلت اللجنة كيانا غير رسمي حتى عام ١٩٦٠ حين تم تسجيلها قانونياً، وأشهرت كمنظمة رسمية لها حقوق وعليها التزامات قانونية. وكان من بين منافع تحولها كيانا رسمياً - التمتع بشخصية قانونية رسمية يكون لها حق التقاضي أمام المحاكم، وإقامة دعاوى قانونية. أما الالتزامات، فقد اقتضت مواداً قانونية خاصة بحق التنظيم والاجتماع ... فضلاً عن ضرورة وجود مجلس إدارة منتخب، ومحاضر تسجل بها وقائع الاجتماعات ... إلى جانب تعيين وجود رئيس مجلس إدارة لها ... وكان الرئيس هو "سعيد رمضان".

ولم يكن جلياً تماماً كيف حدث ذلك. فاللجنة كانت من بنات أفكار "نمقاني" ... وهو نفسه الذي مهر توقيعه على الخطاب الذي أعلن بموجبه المحكمة أن "سعيد رمضان" هو رئيس مجلس الإدارة. ولربما عكس ذلك الأمر أن "الرجلين" - بادئ العهد - قد كانا على وفاق ... وربما كان "نمقاني" يؤمن أن لجنة بناء المسجد لم تكن إلا امتداداً للإدارة الدينية للاجئين المسلمين، والتي كان ما يزال رئيساً لها، آنذاك. إلا أن تصرفات "نمقاني"، وبعد مضي سنوات قلانل، كانت تشي كما لو كان لا يدرك ما انطوى عليه تسجيل اللجنة رسمياً - وهو الأمر الأرجح، نظراً لضعف مستوى تحصيله الدراسي، بالمقارنة بسعيد رمضان الذي كان قد فرغ، حينها، للتو من أطروحته للدكتوراه مع البروفيسور "غرهارد كيغل". وعلى أية حال، فقد اضحى "رمضان" - فجأة - ممسكاً بدفة الكيان القانوني المنوط به بناء

المسجد ... وهو دليل آخر على أن الأمريكيين قد دعموا الرجل المناسب (هذا، وقد ظل "تمنقاني" مسئولاً عن الإدارة الدينية للاجئين المسلمين، والتي لم تكن مخولة بأمر المسجد). أما الألمان ... الذين اجتذبوا "تمنقاني" واستمالوه، وجاءوا بفكرة بناء المسجد ... فقد اضحوا مستبشرين وثلث فاعليتهم.

هذا، وسرعان ما أفاد "رمضان" من وضعه الجديد. فحين برزت إلى "تمنقاني" فكرة بناء مسجد في عام ١٩٥٨ - لم يكن لدى أحد خطة لجمع مئات الآلاف من الماركات الألمانية اللازمة لتمويل تشييد بنيان كهذا. أما الآن، في منتصف الستينيات، فقد أعلن "رمضان" أنه ذاهب إلى الحجاز في رحلة لأداء فريضة الحج، وأنه سوف يجلب معه الأموال اللازمة. أما نفقات بناء المسجد، فقدرت وقتها بـ ١.٢ مليون مارك ألماني (أو المعادل لمبلغ ٢.٢ مليون دولار أمريكي ... بأسعار اليوم). كذا، فإن مهندسا تركيا يدعى "عثمان أديب غوريل" كان قد شرع في التخطيط الهندسي لبناء مسجد متكامل ذي قبة ومئذنة.

هذا، وقد واصل "سعيد رمضان" مساعيه لاجتذاب "قون منده" واستمالته إلى صفه - ويفهم ذلك، على الأرجح، أنه إشارة إلى أن الأمريكيين كانوا يوزعونه لتمتين صلاته بعملهم الاستخباراتي القديم ... فمن دون ذلك التبرير، لا يكون جليا الدافع الذي أدى برمضان للمبادرة باجتذاب الرجل. وفي أعقاب الاجتماع الذي شهدت كنيسة القديس بولس وقائعه، أرسل "رمضان" أحد صغار معاونيه التماسا لتأييد "قون منده" ودعمه. كذا، فقد التقى "رمضان" باي ميرزا هاييت سعيا للدفع قدما لإرساء منظمة أشمل تنتظم المسلمين كافة. إلا أن ردة فعل هاييت كانت غاضبة حانقة، إذ كتب خطابا يقطر غضبا بتاريخ الثامن من آذار/ مارس ١٩٦٠ وجهه إلى "قون منده"، جاء فيه: "إن ألمانيا لبوابة لا يملك زمامها أحد، ذلك لعدم وجود حارس عليها ... فكل يفد إليها ويفعل ما يحلو له".

وبعد ذلك بشهر أو يزيد، وتحديدًا في الرابع عشر من نيسان/ أبريل، أرسل هاييت تقريراً إلى "فون منده"، أخبره فيه أن الولايات المتحدة الأمريكية تسعى مرة أخرى لتعديل نطاق الإدارة الدينية لمنقاني، وذلك عن طريق تمديد أفاقها بحيث تتناول قضايا إسلامية عالمية، إذ كان المفترض أن يكون المسجد أداة لنقد "الإسلام السوفييتي". واستطرد هاييت في تقريره قائلاً: "إن المرء ليخلص إلى كون اللجنة الأمريكية للتحرر من البلشيفية تسعى إلى استخدام تلك الإدارة الدينية لخدمة مآربها الدعائية".

هذا، وكلما أنعمت وكالات الاستخبارات النظر إلى "سعيد رمضان"، كان ذلك مقروناً بفهم أقل له ولدوافعه. فوفقاً لتقرير بتاريخ الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٠، كتب هاييت إلى "فون منده" يخبره بأن "رمضان" كان يخطط للقاء "ضياء الدين باباخانوف" - مفتي المسلمين في روسيا، ورئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاخستان ... والذي تعهد بتقديم أموال لتشديد المسجد. إلا أن تخطيط "رمضان" كان بلا طائل أو جدوى غير الإفصاح عن المصاعب التي أحاطت بالرجل الذي قررت أمكوليب دعمه وموآزرته.

أما "دريهر"، فما فتى يسعى لإدخال الألمان في مجلس الإدارة ... ففي أيار/ مايو ١٩٦١، قام بمهاجمة "فون منده" لينصحه بمقابلة "سعيد رمضان". هذا، وقد شعر "فون منده" بالارتباك كونه قد أدرك أن أمكوليب قد اعترضت على شخص "رمضان" بوصفه رجعيًا متحفظاً - وفقاً لما ورد ببعض تعقيبات وكالة الاستخبارات المركزية قبل سنوات خلت بشأن "فاشستية" سعيد رمضان. وقد جادل "دريهر" في أنه لا معنى لوجود منظمات إسلامية متنافسة في ألمانيا الغربية ... إذا، فلم لا يتم دعم الرجل المناسب؟ إن رمضان لديه صلوات ممتازة وعلاقات واسعة النطاق في الشرق الأوسط، الأمر الذي يسهم بالإيجاب في مناهضة العالم

الحر لخطر الشيوعية.

وعلى مضض، وافق "فون منده" على لقاء "رمضان" في "نوسلدورف" ... حيث كان للتثنائي أحاديث طوال في المقر الفخم لفون منده. لقد بهت "فون منده" وظل مشدوها حين اقترح "رمضان" إرسال وفد إسلامي إلى الاجتماع التالي للجمعية العمومية للأمم المتحدة، بحيث يطالب الوفد بالحريات الدينية، وبالطبع يقوم أيضا بالهجوم على الاتحاد السوفييتي. وكان الاقتراح أن يتأس "سعيد رمضان" الوفد بمعاونة مساعدين هما "إبراهيم كوجا أوغلو"، و"سعيد شامل". هذا، وقد رأى "فون منده" الاقتراح سخيفا، حيث كتب يقول: "إن كوجا أوغلو وسعيد شامل لم يحظيا بانطباع إيجابى عن مجمل أعمالهما في ميونيخ ... إذ كانت أنشطة شامل أثناء الحرب الكونية الثانية وما بعدها أحاديث لاكتها الأسنه فى المهجر. لذا، فإن الرجلين اللذين اقترحهما سعيد رمضان ليسا أهلا للاضطلاع بمهام كان يخطط ليعهد بها إليهما".

كذا، فقد عمد "فون منده" إلى توجيه خطاب فى أيار/ مايو ١٩٦١ إلى ضابط الاتصال خاصته بالاستخبارات الاتحادية الألمانية "زيغفريد أونغرمان" متسائلا: "عن أى الوكالات الأمريكية تلك التى يعمل رمضان لحسابها". فربما لم يكن يدري شيئا عن كون "روبرت دريهر" ضابط اتصال بوكالة الاستخبارات المركزية، بالرغم من امتلاء ملفات "فون منده" بتعقبات أدلى بها عملاء أمكومليب وجواسيسها فى وصف مناخ أخرى لكواليس المنظمة وخبياها.

كذا، فقد كان "فون منده" قلقا بشأن خطط "رمضان" فيما يتعلق بموسم الحج ... إذ آمن "فون منده" بأن القيام بجمع التبرعات لم يكن إلا منبرا لجذب الاهتمام بحيث يسهل على "رمضان" استئصال "تمنقانى" والحلول محله. أما لأمكومليب،

فستكون فرصة لمهاجمة الاتحاد السوفييتي، فيما يمكن لرمضان أن يعتمد إلى محاولة كسب التأييد لصالح جماعة "الإخوان المسلمين" ولصالح حلمه المتمثل في عالم إسلامي موحد.

فعقب مغادرة سعيد رمضان، تحير "قون منده" المتوجس ما عساه يفعل ... لقد أخبر "دريهر" مراراً أن الاختيار من ضمن اللاجئين المسلمين المدعومين من قبل أمكوليب قد جانبه التوفيق. بيد أنه إذا كان "دريهر" قد خال أن يكون "رمضان" لديه علاقات واسعة بما يجعله أهلاً للدعم والمأزرة، فقد يكون لقون منده أن يعيد ترتيب حساباته، فربما كان قد تعجل في استبعاد "سعيد رمضان".

وكانت الفكرة الوحيدة لدى "قون منده" لتمحيص وجهة نظر "دريهر" هي اقتحام مكتب "سعيد رمضان" وسرقة ملفاته ... لذا، فقد عمد إلى ما يلجأ إليه كل بيروقراطي ناجح: كتابة مذكرة قام فيها بتحديد المشكلة واقتراح الحل المناسب. وفي ثنايا المذكرة، كتب "قون منده": "إن رمضان الذي يتعاون على الدوام مع أمكوليب له قاعدة محدودة من المهوسين العرب"، إلا أنه مصنف كعدو لرجل مصر القوى، جمال عبد الناصر ... بيد أن ملفاته ستوضح مدى نفوذه في العالم الإسلامي.

هذا، وقد أمضى "قون منده" بعض الوقت يفكر في كيفية القيام بعملية السطو، بحيث يقوم باي ميرزا هاييت بتنظيم المهمة ... ثم قام "قون منده" بعرض الفكرة على زيغفريد أونغرمان بالاستخبارات الاتحادية الألمانية، مؤكداً أن "رمضان" يعمل لحساب الأمريكيين، وأن نفقاته قد مولها الجانب الأمريكي. وفي النهاية، تم التراجع عن فكرة السطو تلك، إلا أن "قون منده" كان محقاً في القلق الذي استشعره ... فرمضان كاد يسيطر على مشروع بناء المسجد. وكما كان الأمر

دائماً، فقد كان هاييت - نراعه اليمنى وموضع ثقته - هو من لفت انتباهه "فون منده" إلى الأمر ... وكما كانت العادة، فقد كتبت الرسالة المؤرخة في الخامس من حزيران/ يونيو ١٩٦١، من هاييت إلى "فون منده"، بأسلوب صريح مباشر ولكنها صيغت بألمانية ركيكة.

"إنه لأمر صاعق أن تظهر في الأفق جماعة إسلامية أخرى يكون على رأسها سعيد رمضان ... إنه ليبدو أن النمط الشائع في أيامنا هذه هو الكثير من الجماعات والقليل من الأعمال النافعة". كذا، فقد ذكر هاييت، في رسالته، جماعة أخرى شرعت تسعى لبسط نفوذها في أرجاء ميونيخ ... إنها "جماعة الإسلام"، تلك الجماعة الإسلامية الخيرية المريبة التي تتخذ من العاصمة الأمريكية، واشنطن، مقراً لها - حيث يترأسها ذلك الروائي الحروني صعب المراس ... أحمد كمال.